الفصل العاشر

الاتجاهات النظرية في تفسير العلاقة بين البيئة والمجتمع

تمهيد :

يحاول الإنسان منذ وجد على الأرض أن يستغل موارد بيئته لإشباع حاجاته الأ

ولهذا نجد دائما علاقة دينامية يحكمها طبيعة البيئة وقدرات المجتمع وأفراده .

وقد استحوذت محاولة تفسير العلاقة بين البيئة والمجتمع على اهتمام العلماء . واخ

الآراء وظهرت مدارس واجتهادات فكرية اختلفت وجهات نظرها. ونورد هنا آراء

المفكرين والاتجاهات . النظرية في تفسير العلاقة بين البيئة والمجتمع .

وقد لاحظ هيبوقراط Hippocrates [1] عام ٤٢٠ ق .م الفروق بين سكان الج

ذو القامة الطويلة . والبنية القوية . ويتسمون بالشجاعة والأقدام . وسكان السهول ا

وشبهة الجافة وهم على النقيض من ذلك .

وكان أفلاطون [2] أول من نادى بأن الذي يحدث تدهورا في البيئة عليه أن يتحمل

إعادة تأهيلها . فذكر في كتابه القوانين : أن الماء يمكن تلويثه بسهولة . ولذا فإنه

حماية القانون . وأن من يقم بتلويث الماء يفرض عليه أن ينظف البئر أو الجدول . با

إلى تعويض المتضررين من هذا التلوث .

وأكد إيان ج سيموني I.G. Simmony في مؤلفة عن التاريخ البيئي أن الملك

أسوكا As Oka ملك الهند أصدر عددا من المراسيم (نحو ٢٤٧ – ٢٤٢ ق .م)

قوائم الحيوانات التي حظر قتلها . وخصص غابات الفيلة جعل عليها حراسا .

للحرس .

---

(١) – د. محمد ابراهيم حسن . البيئة والتلوث – دراسة تحليلية لأنواع النبات ومظاهر التلوث ص ٧

(٢) – د. عصام الحناوي . قضايا في البيئة في مائة سؤال وجواب ص ١٩

وأشار أرسطو في عام ٢٢٢ ق . م إلى أثر البيئة في حياة السكان وكيف أن سكان الشمال الأوروبي البارد يتميزون بالجرأة والشجاعة . فاحتفظوا بحريتهم . ولكن تنقصهم الخبرة الفنية والتنظيم السياسي . وذلك عكس سكان سهول آسيا فانهم أكثر خبرة ومهارة . ولكنهم أقل شجاعة . وأما الإغريق فهم أمة وسط بينهما . وتجمع بين مميزات المجموعتين الأوروبية والأسيوية .

وفي القرن الأول الميلادي حاول أسترابون Strabone أن يربط بين أثر التضاريس والمناخ من ناحية . وظهور قوة روما من ناحية أخرى .

وقد ظهر الاهتمام بتأثير البيئة على المجتمع والإنسان في أوروبا في عصر النهضة وخاصة بعد الكشوف الجغرافية . وخاصة على يد الأسبان نحو العالم الجديد في الأمريكتين . وعلى يد البرتغاليين نحو طريق الرجاء الصالح بجنوب أفريقيا ونحو الهند . وأدت هذه الكشوف إلى توسيع دائرة المعرفة بالعالم . وبينت كتابات الرحالة والمستكشفين التنوع البيئي الذي جاء نتيجة هذا التوسع . ووصفوا الشعوب وأعمالهم وسلوكهم .

وقد أكدت هذه الكشوف الجغرافية تأثير البيئة على المجتمع والإنسان . والتوازن البيئي بين أثار البيئة الطبيعية من ناحية والنشاط البشري من ناحية أخرى .

وفي عصر النهضة هاجم بعض المفكرين مثالية الإغريق . فقد شنّ فرانسيس بيكون منذ عام ١٦٠٠ هجوما على فلاسفة الإغريق . واتهمهم بالسفاجه وعدم الواقعية .ورأى بيكون أنه يجب علي الإنسان استخدام معرفته لإخضاع الطبيعة لسيطرته وتسخيرها لمنافعه . وهذا ظهر مبدأ السيطرة على الطبيعة في الحضارة الغربية منذ ذلك الوقت .

وفي العصر الحديث حاول مونتسكيو في كتابه " روح القوانين " أن يخضع السلوك البشري للضوابط البيئية الطبيعية . وأعطى وزنا كبيرا لتأثير المناخ والتربة على الإنسان .ورأى أن سكان المناطق الباردة أقوى بنية وأكثر شجاعة وصدقا . وأقل ريبة ومكرا من سكان المناطق الجنوبية الدافئة .

وربط مونتسكيو كذلك بين أنواع التربة وأنظمة الحكم . فرأى أن النظام الملكي يسود مناطق التربة الخصبة . بينما يسود النظام الجمهوري مناطق التربة الفقيرة . وتظهر الأرستقراطية والإقطاع في مناطق التربة الغنية . والديمقراطية في مناطق التربة الفقيرة .

وفي منتصف القرن التاسع عشر . أعلن الجغرافي الألماني فردريك راتزل (١٨٤٤ — ١٩٠٤) مبدأ الحتمية في علاقة الإنسان مع البيئة . وبرز ذلك في كتابه الذي صدر عام ١٨٨٢ بعنوان " جغرافية الأجناس " .

ونادت الين سمبل Ellen Sample في كتابها بعنوان تأثيرات البيئة الجغرافية The Influence Of Geographic Environment والذي صدر في أوائل القرن العشرين بحتمية الأثر البيئي في سلوك الإنسان وأن الإنسان من إنتاج سطح الأرض . فشكلت أعماله ووجهت أفكاره . وهمست له في نفس الوقت بالحلول .

ومن مؤيدي الحتمية فيكتور كزن . ومن أقواله الشهيرة " أعطني خريطة البيئة ومعلومات كافية عن موقعها ومناخها ومواردها الطبيعية . وبإمكاني على ضوء ذلك أحدد لك أي نوع من الإنسان يمكن أن يعيش في هذه البيئة وما هي نشاطاته الاقتصادية ".[1]

ونورد هنا بعض المدارس التي فسرت العلاقة بين البيئة والمجتمع :

المدرسة الحتمية Determinism

ويطلق على هذه المدرسة كذلك المدرسة البيئية . وهي تعطى الطبيعية الوزن الأكبر في مجال العلاقة بين البيئة من ناحية ، والمجتمع والإنسان من ناحية أخرى . وتنظر هذه المدرسة إلى الإنسان باعتباره كائن سلبي تجاه قوى الطبيعة . وهو ومن خلال الحتمية البيئية مسير وليس مخير .

ويقوم الفكر الحتمي أو البيئي على مفهوم أساسي هو أن الإنسان يتواجد في بيئته التي

---

[1] - د. زين الدين عبد المقصود . البيئة والإنسان - دراسة في مشكلات الإنسان مع البيئة ص ص ٢٧ - ٢٩

تؤثر فيه تأثيرا أكيدا . ومن الضروري أن يتكيف معها ويعيش في حدود إمكانياتها . وهذا الاعتماد الوثيق يقتضي تدفقا ذا اتجاه واحد من البيئة إلى مكوناتها . أي أن هناك حركة مركزية جاذبة من البيئة إلى الكائنات الحية والمجتمعات الإنسانية .[١]

و تؤكد المدرسة البيئية على أن المنظومة البيئية هي العامل الوحيد في نشأة وتشكيل الثقافة والنظم الاجتماعية . وأن الاختلافات القائمة بين المجتمعات الإنسانية مردها إلى الاختلافات المتباينة في الظروف البيئية والجغرافية .[٢] وتذهب هذه المدرسة إلى أن النظم الثقافية والاجتماعية تنشأ وفقا للتربية الفيزيقية .[٣]

ومن رواد هذه المدرسة القدامى هيبوقراط و أرسطو .. فقد ربطا بين المناخ وطبائع الشعوب وعاداتهم . وظهر الاتجاه الحتمي في مقدمة أبن خلدون [٤] في العصور الوسطى . فقد بين آثار اختلاف البيئات في حياة سكانها . وربط بين المناخ وطبائع الشعوب . ووصف أثر الهواء في أخلاق البشر والمناخ في طبائع الشعوب . فالمعمورة من هذا المنكشف إنما هي وسط لفرط الحر في الجنوب والبرد في الشمال . فأقاليم الوسط تمتاز باعتدال مناخها . وسكانها أكثر اعتدالا في أجسامهم والوانهم وأخلاقهم ومعاملاتهم . والبيئة في هذه المناطق أكثر عطاء وتنوعا في هذا الغطاء من أراضي الشمال الباردة . والجنوب الشديدة الحرارة .

أما البيئة الحارة فيسكنها السود من البشر . وبيوتهم من الطين والقصب وأقواتهم من ذرة وعشب وملابسهم من أوراق الشجر أو الجلود . وأكثرهم عرايا من اللباس . وهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا .. وهم يتسمون بالخفة والطيش والتأخر .

---

(١) - Rudolf Moos . Environment and utopia , P. 7

(٢) - دانيل فيدرات . التربية البيئية بين النظرية والتطبيق . مجلة مستقبل التربية ، العدد ٤ ، مطبوعات اليونسكو ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٧٢ - ٨٤

(٣) - احمد زكي بدوي . معجم مصطلحات الرعاية والتنمية ص ١٣٦

(٤) - انظر مقدمة ابن خلدون . الطبعة الأزهرية ص ٦٩ وما بعدها .

ووصف ابن خلدون أهل الشمال بأنهم في تأخر حضاري وتدهور في البناء الاجتماعي القبلي . ويعيشون على الصيد والرعي والزراعة البدائية : أما مجتمعات حوض البحر المتوسط فيتسمون بالجرأة والشجاعة والمعرفة .

والواقع أن ما قررته المدرسة الحتمية قد ينطبق بشكل كبير على مختلف أشكال الحياة النباتية والحيوانية . ولكنة أقل انطباقا على الحياة الإنسانية . فالإنسان أقل الكائنات خضوعا للبيئة . وكلما تقدم العلم وتطورت التكنولوجيا كلما زادت درجة التحرر من الحتمية .[1]

المدرسة الإمكانية Possibilism

وهي مدرسة تناهض مدرسة الحتمية البيئية . وتتلخص فلسفتها في أن الإنسان ليس مجرد مخلوق سلبي غير مفكر . خاضع تماما لمؤثرات وضوابط البيئة الطبيعية . ولكنة إيجابية فعالة ومفكرة وذا خاصية دينامية قادرة على التغيير والتطوير .

وتؤمن هذه المدرسة بحرية الإنسان في الاختيار . فالبيئة لا تحتوى على ضروريات حتميات . وإنما تقدم للإنسان عددا من الاختيارات . والإنسان بمحض إرادته يختار منها يتلاءم مع قدراته و أهدافه وطموحاته وتقاليده . فما من بيئة لم تمتد لها يد الإنسان بالتعديل أو التغيير أو التحوير . فالإنسان قوة إيجابية فعالة في تهيئته لمطالبه وتعديلها أو تغيرها وفق لمشيئته . وعلى ذلك ليست هناك حتمية مطلقة صارمة . بل هناك إمكانية مرنة .

ويري أصحاب المدرسة الإمكانية أن الإنسان ليس مجرد مخلوق سلبي . غير مفكر أو خاضع تماما لمؤثرات البيئة الطبيعية . ولكنة سيد البيئة والمسيطر عليها . فهو الذي يحد

---

(1) - د. الفاروق زكي يونس . مفهوم البيئة في الخدمة الاجتماعية . المؤتمر العلمي السادس (الخدمة الاجتماعية وقضايا البيئة) ، كلية الخدمة الاجتماعية - جامعة حلوان ، القاهرة ، ١٩٢٢ ص ٣٨

نمط استغلاله لموارد بيئته . فلو كانت البيئة الطبيعية هي العنصر الحاكم في هذه العلاقات لتشابهت وتجانست الأنشطة البشرية بين البيئات الطبيعية المتشابهة .

والواقع يقول أن هذه الفرضية السابقة غير قائمة . فالبيئة الجافة في كل من الولايات المتحدة الأمريكية . وصحراء الجزيرة العربية . وصحراء كلهاري تتشابه مكوناتها الطبيعية . ومع ذلك فإن الأنشطة البشرية في كل من هذه المناطق تختلف عن المناطق الأخرى .

وتذهب المدرسة الإمكانية إلى أن التأثير المركزي لمكونات البيئة هو الذي يقرر مصيرها فتتشكل البيئة وتترقى بها الكائنات الحية والمجتمعات الإنسانية من تأثير دائم . بمعنى أن الكائنات الحية بما فيها الإنسان هي التي تشكل بيئتها من خلال نشاطها المختلفة .

والواقع أن المدرسة الإمكانية قد غالت بعض الشيء في أن البيئة هي التي تقدم للإنسان عددا من الاختيارات . والإنسان يختار منها ما يتلاءم مع قدراته وأهدافه . وهو المسيطر على البيئة . والقادر على تحديد نمط استهلاكه لمواردها . إلا أنة في الواقع يقف عاجزا أحيانا عند مواجهة المشكلات البيئية أو تسخير معظم الموارد البيئية لصالحه . ولو كان الأمر كذلك لتجانست الأنشطة البشرية بين البيئات الطبيعية المتشابهة .

المدرسة التوافقية أو الاحتمالية

حاولت المدرسة التوافقية أو الاحتمالية أن توفق بين آراء المدرستين المدرسة الاحتمالية . والمدرسة الإمكانية . فهي لا تؤمن بالحتم المطلق . ولا بالإمكانية المطلقة . وإنما تؤمن بأن الاحتمالات قائمة في بعض البيئات لكي يتعاظم الجانب الطبيعي في مواجهة سلبيات الإنسان وقدراته المحدودة " حتمية " . وفي بيئات أخرى يتاعظم دور الإنسان في مواجهة تحديات ومعوقات البيئة (إمكانية) .

ومن ثم فهي مدرسة واقعية لأنها تصور واقع العلاقة بين الإنسان والمجتمع من ناحية . وبين البيئة من ناحية أخرى . وهي مدرسة موجودة فعلا دون تميز أو تعصب لطرف على حساب الطرف الآخر .

وتقوم فكرة هذه المدرسة على أساس أن البيئات الطبيعية ليست ذات تأثيرات واحدة على المجتمع والإنسان . وذلك من منطلق اختلاف تأثير واستجابة هذه البيئات من ناحية . ومن خلال اختلاف قدرات الإنسان وإمكاناته في استغلال موارد البيئة من ناحية أخرى .

ومن ثم يرون أن الحتمية قائمة في بعض البيئات . والإمكانية قائمة في بيئات أخرى . فإذا ما اقترنت بيئة صعبة مع إنسان متخلف تسود الحتمية . وإذا ما اقترنت بيئة سهلة مع إنسان متطور تسود ولا شك الإمكانية .

وقد صاغ المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي Arnold Toynpe أربع استجابات للعلاقة بين الإنسان وبيئته . وذلك من خلال الأنشطة البشرية التي يمارسها الإنسان . وهي :

١- استجابة سلبية :

ويكون الإنسان فيها متخلفا . لا يستطيع أن يطوع بيئته . ويقف أمامها عاجزا . ويتمثل هذا في بيئة حرفتي الجمع والصيد البدائي .

٢- استجابة التأقلم :

أوتي الإنسان ببعض المعرفة . فيحاول أن يتأقلم جزئيا مع ظروف بيئته الطبيعية . ويتمثل ذلك في بيئة حرفة الرعي البدائي أو المترحل حيث تعتمد تربية الحيوان على ما توفره البيئة الطبيعية من مرعى وموارد مياه لسياقه الحيوانات . وكذلك بيئة الزراعة البدائية .

٣- استجابة إيجابية :

وفيها يحاول الإنسان أن يتغلب على معوقات البيئة وتحدياتها للوفاء باحتياجاته . وهنا تظهر قدرته على تطويع عناصر البيئة الطبيعية الصالحة .ويمتثل ذلك في حرفة الزراعة غير البدائية . والرعي المتطور . والصيد المتطور . وهي حرفة تظهر إمكانيات الإنسان وقدراته

٤- استجابة إبداعية :

وفيها لا يكتفي الإنسان بمجرد التأقلم والتقليد . بل يبتكر ويبدع ليتفوق على بيئته .

ويتمثل ذلك في حرفة الصناعة . إذ هي ابتكار وإبداع بشري.[١]

مدرسة التفاعل Interaction

وترى هذه المدرسة أن هناك تأثير متبادل بين البيئة ومكوناتها . فالكائن الحي لا يتأثر بكل ما يحيط به من ظواهر كالحرارة والطاقة فحسب . بل أن البيئة هي الأخرى تتأثر بالكائن الحي عن طريق التغذية المرتدة الخارجية ، التي يسري تيارها إلى البيئة . بمعنى أن البيئة تؤثر في الكائنات الحية التي تسكنها . وهي بدورها تؤثر في البيئة المحيطة .

وتعد هذه المدرسة أقرب إلى الواقعية والموضوعية . فقد أكدت على وجود علاقة تفاعلية بين الإنسان والبيئة . فالواقع يشير إلى أن إشباع احتياجات الإنسان تتم عن طريق تحويل بعض عناصر المنظومة البيئة إلى مصادر ثروة تزيد من درجة إشباعه لاحتياجاته.والإنسان يحاول جاهدا اكتشاف الجديد لمعالجة العناصر المتوفرة في هذا المحيط بتقنيات جديدة لاستخدامها .

وتقدم النظرية التفاعلية معطيات تساعد على فهم العلاقة بين البيئة والصحة والمرض . فالتفاعل بين المنظومات الثلاث يؤثر بشكل أو بآخر في العوامل المهيئة للصحة أو المسببة للمرض . فالمنظومة الطبيعية تقدم مجموعات من التغيرات الفيزيقية مثل المناخ والتضاريس ودرجات الحرارة ..... وما إلى ذلك .

وتقدم المجموعة الاحتمالية عددا من المتغيرات ، مثل : التعليم ، الثقافة ، التنشئة الاجتماعية . الممارسات اليومية . العادات السلوكية .

وتضم المنظومة التكنولوجية تقنيات حديثة تساعد الإنسان على إشباع مختلف احتياجاته مثل القدرة على استخدام مياه الشرب النقية . توفير المواصفات الصحية في المساكن مما يعزز الصحة العامة . كما يمكن أن تؤدي هذه التقنيات إلى إحداث التلوث البيئي والمسبب للعديد من الأمراض الخطيرة .[٢]

---

(١) – د. زين الدين عبد المقصود . المرجع السابق ص ص ٢٩ – ٣٢

(٢)– د. عصام توفيق قمر ود. سحر فتحي مبروك . المرجع السابق ص ص ٢٢ – ٢٣